# من ملامح الاتجاه الخلقي في النقد العربي القديم
## «نقد الشعراء»

أ . د . وليد إبراهيم قصّاب*

تقـــديم :

من قضايا الأدب والنقد الكبرى التي احتدمت حولها الآراء قديما وحديثاً قضية «الفـن والأخلاق» وقد ارتبطـت بموضوع أعـم، وهو موضـوع «وظيفة الفن» وسلكت وجهات النظر الكثيرة المتباينة حول هذا الموضوع مسلكين اثنين :

ذهب أحدهما ـ وهو الأقدم ـ إلى أن ممـا يكسب الفن شرعية الوجود أن يكـون لـه وظيفة يـأرب بتحقيقهـا، فـالفن يعلّـم ويهذّب ويغيرّ، فهـو ذو دور اجتماعي تربوي، يدعو إلى قيم وأفكار معينة، فهو جزء من النسيج الاجتماعي، يلتقي مـع الدين والتربيـة وعلم الأخـلاق والوسائل المؤثـرة الأخرى في التغيير والإصلاح ومعـاداة القيم الإنسـانية الشريـرة. وفي هذا المنـزع لا يبدو الجمال الفني وحده هو الغاية، بل الجمال والفكر معاً. والفنان ـ في ميزان النقد ـ مثلما هو مـؤاخذ على اختلال الأدوات التعبيرية وتقصيرهـا، مؤاخذ كـذلك على رداءة القيم الفكرية التي يروّج لها. فالفن الناجح شكل جميل، وفكر نبيل، وينبغي أن يعتنقا معا في تناسق متميز رفيع يحقق للعمل رفعته وخلوده.

وذهب أصحـاب المسلك الثـانى إلى تحرير الفـن من الغـاية، وألا يـأرب بتحقيـق وظيفة مـا، فهـو غايـة في ذاته، يبـدع الجمال المجـرد، ويخلق المتعـة والتسلية، ويفرغ النفـس ويطهرها من العـواطف الكظيمة، وحسبه ـــ وهذا ما ينبغي أن يحفـل به النقـد كذلـك ـ أن يكـون باهـر الأسلوب، مـوفور الجمال، متناسق الأجـزاء، لا خلل في صياغته ولا أمْـت، وليقل الفنان بعد مـا يشاء من المعانى والأفكار، سواء أكـانت مع الأخلاق أم خرجت عليهـا، ولا ينبغي قياسه بها، أو جعلها معياراً من معايير الحكم النقدي.

---

* أستاذ الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية ـ دبي.

وعرف تـراثنا الأدبي القديم ـــ مثلما عرف ذلك التراث الإنسـاني كله ـ هـذين المنـزعين كليهما، وقد يمـر عهد يغلـب أحدهما الآخـر، أو يطغى عليـه، لأسباب دينية، أو سياسية، أو اجتماعية معينة، أو غير ذلك من الملابسات.

وقد ضل قوم مـن الدارسين المحدثين ضلالاً بعيداً عندمـا صوّروا النقد العربي القديـم جمالياً، لا يهتم بغير الشكل الفني للأدب، ولا يُعنـى إلا بوجوه الجمال التي فيـه، غير محتف ولا محتفل بـرسالته الاجتماعيـة، أو الخلقية، أو الدينية، أو آخذ ذلك في حسبانه، وهو يتداول النص الأدبي، أو يحكم عليه وعلى صاحبه.

قال محمـود الربيعي : «النـاظر في النقد العـربي القديم لا يجد فيـه ما يشير إلى اعتناق النقاد لذلك المذهب التعليمي الذي يربط الشعر بغايات أخلاقية محددة، ولكنه يجد فيـه ما يشير إلى عكس ذلـك، والحق أن المقاييس التـي كان يقوم عليها نقد الشعر عند العرب مقاييس فنية خالصة في عمومها، أما الأخلاق ـ التي كـانت تعني في نظرهم التعاليـم الدينية والأهداف التعليمية ـ فقـد كانت خارجة عن مهمة الشعر»(١).

وقال عز الديـن إسماعيل : «الملاحظة التي وقف عندهـا النقد العربي ـ وأصر في كل حالة على موقفه ـ هي أن الفن لا يمكن أن يعيش في كنف الدين أو الأخلاق. وكأن الأهداف الدينية والأخلاقية لا تأتلف وطبيعته، وكأن استهداف أوجه الخير يضعفه كما قال الأصمعي»(٢).

وقال في موضع آخر : «من الظواهـر الغريبة في عهد بني أمية أن يصبح الأخطل ـ وهو نصراني ـــ شاعر الخلافة في فترة من الفترات. وقد يكـون لذلك تفسيرات مختلفة، ولكن التفسير اللازم هو أن هذا الموقـف لم يكن غريباً في أمة تفصل فصـلاً تاماً بين الشعر والـدين، أو تجعل النـزعة الدينية مـن معطلات الشعر..»(٣)

---

(١) في نقد الشعر : ٦٥.

(٢) الأسس الجمالية في النقد العربي : ١٨١.

(٣) السابق : ١٨٣.

وقال في موضع ثالث : «انتهى مفهوم الأدب عند العرب إلى أنه صناعة... وإن الاتجاه العام إلى اعتبار الجمال في الشكل دون المحتوى،... ولم يدخل الناقد الموضوعي محتوى العمل الأدبي، على أساس أن المحتوى يتصل بشيء آخر سوى الجمال...»(١).

وقال كذلك : «إن المؤثر الديني سواء في الجاهلية والإسلام، لم يستجب له الشعراء، وكأن فترة ظهور الإسلام كانت فترة عارضة في حياة هذا الشعر، مالبث أن تحول بعدها إلى مجراه الأول واتجاهه القديم، فترك الدين، وترك الأخلاق، ترك لهما ميدانهما، ووقف بعيداً لا يكاد يتأثر بهما، بل لعله كان يتأثر بهما تأثراً سلبياً..»(٢).

وجعل محمود الربيعي ارتباط الأدب بالأخلاق تياراً جديداً لم يعرفه التراث العربي القديم، بل نزعة دخلت النقد العربي الحديث عن طريق الفكر الأوربي. يقول : «ينبغي أن يكون واضحاً منذ البداية أن الذين دعوا إلى أن يكون الأدب هادفاً في النقد العربي الحديث يدينون بأفكارهم هذه ـ دون أن يكون في ذلك ما يعيبهم ـ للفكر الأوربي، سواء منهم من يلتزم بفكر مذهبي بعينه كسلامة موسى، أم من كان ـ ولا يزال ـ يصدر عن مذهب خاص هو المذهب اليساري في الفكر عموماً، وفي الفكر النقدي بصفة خاصة، مثل محمود أمين العالم»(٣).

وردّد دارسون محدثون آخرون(٤) هذا الرأي، فعمّموا الحكم على النقد

---

(١) السابق : ٣٩٨.

(٢) السابق : ١٨٥، وانظر كثيراً من الآراء المبثوثة في ثنايا هذا الكتاب، فهو يروج لهذا الاتجاه.

(٣) في نقد الشعر : ٧٢

(٤) انظر مثلاً ماهر حسن فهمي في مقال «موقف الأديب بين الحرية والالتزام» ص١٣٥ حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد الثالث : ١٩٨١م، وانظر أحمد الشايب في أصول النقد الأدبي : ٣٦٩ ، ٤٠٢.

العربي القديم بأنه نقد جمالي، عُني بالشكل الفني وحده، ولكنه لم يعكس اهتماماً بالموقف الخلقي أو الديني للشعر أو الشاعر.

ومن الواضح أن هذه الأحكام الخطيرة الخاطئة خرجت من عباءة استقراء ناقص لنصوص النقد العربي القديم، ووقوف من هذه القضية عند وجه واحد من وجوهها. إن في نقدنا القديم ـ ولا ريب ـ نصوصاً ومواقف كثيرة تبدو أقرب إلى أن تمثل ما يدعى في النقد الحديث المدموغ بالذوق الغربي والفكر الغربي، النقد الجمالي، أو النقد الفني، كقول قدامة بن جعفر مثلاً : «المعانى كلها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها فيما أحب وآثر، من غير أن يُحظر عليه معنى يروم الكلام فيه؛ إذ كانت المعانى للشعر بمنزلةالمادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة من أن لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصورة منها، مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة، وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضَّعَة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح والعضيهة(١)، وغير ذلك من المعانى الحميدة والذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى النهاية المطلوبة(٢)...»

وقول الجرجانى في معرض الدفاع عن المتنبي الذي اتهم في بعض شعره بكسر الوازع الديني : «الدين بمعزل عن الشعر»(٣).

وقول الصولي في موطن رد تهمة مماثلة عن أبي تمام : «وما ظننت أن كفراً ينقص من شعر، ولا أن إيماناً يزيد فيه....(٤)»

ولكن هذه الأقوال وأمثالها منزع معين من منازع النقد العربي، وهي لا تمثل إلا وجهاً من وجوه هذه القضية الشائكة، وقد صدرت في مواقف خاصة، من دون أن تعبر عن اتجاه فكري معين يتبنى اتجاه المصادمة أو المنابذة بين

---

(١) البهتان والكلام القبيح.

(٢) نقد الشعر : ١٧.

(٣) الوساطة : ٦٤.

(٤) أخبار أبي تمام : ١٧٢.

الفن والدين، أو الفن والأخلاق، أو الفن والموقف الاجتماعي الملتزم، على نحو ما صدرت عن ذلك الأفكار الغربية المعاصرة.

ويحاول هذا البحث أن يصور ملمحاً من ملامح الوجه الآخر لهذه القضية، وهو وجه التيار الخلقي في النقد العربي القديم، ليدرك المتلقي أي خلل يمكن أن يقع فيه البحث العلمي عندما يقصّر في الاستقراء، أو ينظر في اتجاه واحد، فيطلق أحكاماً تعميمية من خلال نصوص محدودة معدودة لا تمثل إلا صفحة من صفحات الحقيقة.

## الاتجاه الخلقي في نقد الشعراء

بين أيدينا طائفة غير يسيرة من آراء الشعراء النقدية التي عبرت عن موقف خلقي في التعامل مع الشعر، وعن تقدير لدور الكلمة ومسؤوليتها، وأنها نشاط جاد هادف، وهي تمثل وجهاً من وجوه التيار الخلقي الكثيرة في نقدنا العربي القديم. وقد طرحت هذه الآراء التي يتعامل معها هذا البحث عدداً من المسائل الهامة يمكن تصنيفها إلى ما يأتي.

### وظيفة الشعر :

عبرّ كثير من الشعراء عن تصورهم لدور اجتماعي تربوي خلقي للشعر، يتمثل في الدعوة إلى محمود الصفات، ومكارم الأخلاق، وهنا يبدو الشاعر كالمصلح المربي، يعشق الحق والخير، ويدل عليهما.

صور أبو تمام الشعر ـ بما له من تأثير في النفس ـ راسماً طريق المكارم، مسموع الكلمة، نافذ الحكم. قال(١) :

ولولا سبيل سنّها الشعر ما درى ... بُغاة العلا من أين تؤتى المكارم
ترى حكمةً ما فيه وهو فكاهة ... ويقضي بما يقضي به وهو ظالم

وتحدث البحتري عن نظرة مماثلة إلى دور الشعر، وأن قوافيه تدل على المناقب:

---

(١) اختيار الممتع : ١/٨٨.

تدارك شملَ الشعر والشعر شارد الشوارد مرذول غريب الغرائب
فضم قوافيه إليه تيقناً بأن قوافيه سلوك المناقب(١)

وأما ابن الرومي فقد عبر عن هذا الدور بشكل أعمق، فرأى الشعر يحيي المجد والبأس، ويبني النفوس، ويجبلها على الخير والرفعة، ولولاه لكانت أعظماً نخرات، يقول (٢) :

أرى الشعر يحيي المجد والبأ س بالذي تبقّيه أرواح له عطرات
وما المجد لولا الشعر إلا معاهد وما الناس إلا أعظم نخراتُ

وتحدث أبو العلاء عن وظيفة خلقية نفسية للشعر، تتمثل في تشجيع الجبان، وتذكير الناسي، وعطف قلب الكاشح القالي. قال الكلاعي : قال أبو العلاء : «لا تجهلوا فضيلة الشعر، فإنه يذكّر الناسي، ويحل عزمة الفاتك، ويعطف مودة الكاشح، ويشجع الجبان :

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته : صدقا

صدق أبو العلاء..(٣)».

ووضّح الأعشى إمكانية استثمار طاقة الشعر ـ في الانسراب إلى النفس والنفاذ إلى طواياها ـ في حملها على الخير، واستنزالها إلى الجود والكرم كما ينزل رعد السحابة السبل، يقول (٤) :

والشعر يستنزل الكريم كما يُنْزل رعد السحابة السَّبَلا

وتحدث شعراء عن وظيفة اجتماعية أخرى للشعر تتمثل في الدفاع عن القوم، والمحاماة عنهم. قال الفرزدق (٥) :

أذود وأحمي عن ذمار مجاشع كما ذاد عن حوضَي أبيه المخبّلُ

---

(١) السابق : ١/١٣٢.
(٢) محاضرات الأدباء : ١/٤٦، السابق نفسه.
(٣) إحكام صنعة الكلام : ٤٥.
(٤) العمدة : ١/ ٢٨.
(٥) شرح ديوان الفرزدق : ٥١٦.

وقال في موضع آخر (١) :

أنـا الشاعـر الحامي حقيقـةَ قومـه ومثلي كفـى الشرَّ الذي هـو جارمُـهْ

ودعا الفرزدق الحارث بن نهيك إلى أداء هذه الوظيفة بقوله (٢) :

إلى الأصلع الحلاّف إن كنت شـاعراً فـذبّـب، فما هـذا بحين لغُـوب

وأعلن هدبة بن خشرم قبلية شعره، وأنه موظف في المحاماة عن العشيرة، وإذا ترفع عن سفيه قومه فلم يهجه، فلن يسكت عمن يهجو قومه، صوناً لهم، وذباً عنهم، يقول (٣) :

سأهجـو من هجـاهم مـن سواهـم وأعـرض منهـم عمـن هجـانى

**اجتناب الفحش والتزام العفة**

وعبرت أقوال نقدية لبعض الشعراء عـن التزام العفة في القول، والابتعاد عن الفحـش، وما من شأنـه أن يشين المروءة، ويخدش وجه الحياء. وقـد مثل قمة هذا الالتزام الخلقي الشاعر العباسي محمود الوراق عندما قال :

«قلْ من الشعر ما يبقى لك ذكره، ويزول عنك إثمه(٤)»

وصور هذا التوجّـه الخلقي نصيبُ بن رباح في ترفعـه العفيف عن هجاء رجل من أهل الحجاز قال فيه :

رأيـت أبا الحجنـاء في الناس حـائراً ولـون أبي الحجنـاء لـونُ البهـائم
تـراه على مـالاحـه مـن سـواده وإن كـان مظلـوماً لـه وجـهُ ظـالم

فقال له قائل : ألا تجيبه ؟ فرد نصيب : لا، لـو كنت هاجياً لأحد لأجبته،

---

(١) السابق : ٧٦٦.

(٢) السابق : ٤٠.

(٣) شعر هدبة : ١٤٦، شرح حماسة أبي تمام للشنتمري : ١/ ٣٨٥.

(٤) مختصر تاريخ دمشق : ٣/ ٣١٩.

ولكن الله أوصلني بهذا الشعر إلى خير، فجعلت على نفسي ألا أقوله في شر، ما وصفني إلا بالسواد، وقد صدق..(١)»

كما عبّر نصيب عن اجتناب السفه، والحرص على انتباذ قبيح الكلام، والرغبة في التزام العفة في قوله : «والله، إني ما قلت بيتاً تستحي الفتاة الحيية من إنشاده في ستر أبيها...(٢)»

وقال هدبة بن خشرم مفتخراً بترك السفساف من القول (٣) :

ولست الشاعَر السفساف فيهم ولكن مِدْرَه الحرب العَوان

وأما الفرزدق فقد أخذ على نفسه ميثاقاً غليظاً أن يجتنب قول السوء، وألا يخرج من فيه إلا الحق، فقد اهتدى إلى السداد، وزالت غشاوة الباطل عن عينيه، فاستدل على طريق الرشاد، طريق الإسلام الذي يحول بينه وبين شعر السفه بأخاديد عميقة، يقول (٤) :

ألم ترني عاهدت ربي وإنني
لبين رتاجٍ قائمٌ ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلماً
ولا خارجاً من فيّ سوء كلام
ألم ترني والشعرَ أصبح بيننا
دُرُوء من الإسلام ذاتُ حوام(٥)
بهن شفى الرحمن صدري وقد جلا
عشا بصري منهن ضوءُ ظلام

---

(١) الأغاني : ١/٣٥٢.

(٢) السابق : ١/٣٦٤.

(٣) شعر هدبة : ١٤٦، شرح حماسة أبي تمام للشنتمري : ١/٣٨٥.

(٤) شرح ديوان الفرزدق : ٧٦٩.

(٥) الدرء : نتوء في الجبل، وشق في الطريق أو ميل فيه، جمعه دروء. والحوامي : عظام الحجارة وثقالها.

وأُثـر عـن الأخطـل النصراني ادّعاء الحرص على الاستمسـاك بـأهـداب الفضيلة، فـزعم أنـه يترفع في هجـائه عن الفحـش، وينتبذ البـذاءة، قال : «مـا هجوت أحـداً قط بما تستحـي العذراء أن تنشـده أباهـا(١)» وكان هـذا المنزع الخلقي مـن أسباب تقديمه عنـد من قدمه كما يقـول عمر بن شبة : «كـان مما يقدم به الأخطل أنه كان أخبثهم هجاء في عفاف عن الفحش(٢)» ولعله يعني أن هجاء الأخطل موجع، شديد الوقع، ولكنه بعيد عن الفحش..

ومن قبيل هذا التوجه في اجتنـاب الفحش، وركوب متن السفه في القول، ما يروى من أن النابغة أخذ على قومه بني ذبيان تفحشهم في الرد على عامر بن الطفيل بعد وقعة حسي. قـال ابن رشيق : لما قدم النابغة بعـد وقعة حسي سأل بني ذبيان : ما قلتم لعامر بن الطفيل وما قال لكم ؟ فأنشدوه، فقال : أفحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل ذلك، ولكني سأقول، ثم قال :

فـإن يـك عـامـر قـد قـال جهـلاً فـإن مطيــة الجهــل السبــاب
فكـن كـأبيـك أو كـأبي بـراء ...... إلـــــخ

فلما بلغ عامـراً ما قال النابغة شـقّ عليه، وقال : ما هجـانى أحد حتى هجانى النـابغة، جعلني القـوم رئيساً، وجعلني النابغـة سفيهاً جاهـلاً، وتهكم بي..(٣)»

وفي إحساس من شـاعر كالنابغـة الشيباني بخطر الكلمة ومسـؤوليتها، وأنها قد تجمح بالشاعر، أو يغلبه سلطـانها الشموس، يقيم عليها حسيباً حتى تستقيم على الجادة، وهذا الحسيب هو ذكر الله.

عن عيسى بـن عمر قال : «كان نـابغة بني شيبان ينشـد الشعر فيكثر، حتى إذا فرغ قبض على لسانه فقال : لأسلطـن عليك ما يسوؤك : سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر..(٤)»

---

(١) الأغاني : ٨/٣٠٠.

(٢) السابق نفسه.

(٣) العمدة : ٢/١٧٢.

(٤) المنتقى من أخبار الأصمعي : ٩٧.

## إيثار الصدق

صدق الكلام مطابقته الواقعَ والحقيقة، وبعده عن المبالغة التي تحجزه عن العقل، وتقيم بينه وبين المنطق برزخاً صفيقاً. والصدق ـ لاشك ـ منزع من منازع النقد الخلقي. وقد عبر بعض الشعراء عن هذا المنزع، وكان معياراً من معاييرهم النقدية. قال حسان بن ثابت (١).

وإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته : صدقا
وإنما الشعر لبّ المرء يعرضه ... على المجالس إن كَيْسا وإن حمَقَا

وحسان بذلك يربط بين الشاعرية والصدق، خلافاً لمن ربط الشاعرية بالكذب والغلو عندما قال : «أعذب الشعر أكذبه» كما جعل حسان الشعر قطعة من لب قائله، وعندما يعرض الشاعر كلامه على الناس يعرض عقله، بما فيه من كياسة أو حمق، ومن حق أو باطل، ومن سمو أو هبوط.

وشرح عبدالقاهر الجرجانى مراد حسان بالصدق فربطه بالعنصر الخلقي، فقال : فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب فيه الفضل، وموعظة تروض جماح الهوى، وتبعث على التقوى، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال، وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه..(٢).

ومدح نابغة بني شيبان الصدق وربطه بالمثل الحق، وقابل بينه وبين غثاء الكلام، فقال :

والشعر شتى يهيم الناطقون به ... منه غُثاء ومنه صادق مَثَل(٣)

وتمدّح به في موضع آخر قائلاً :

وقال العدو والصديق كلاهما : ... لنابغةَ البكريّ شعر مصدَّق(٤)

---

(١) العمدة : ١/ ١١٤.

(٢) أسرار البلاغة : ٢١٨، ٢١٩.

(٣) ديوان نابغة بني شيبان : ٩٦.

(٤) السابق : ٣.

وقال الأحوص مخاطباً عمر بن عبدالعزيز الذي لم يحفل بالشعراء الذين خَبَرَ ما خبر من سوء قولهم أو فعلهم، ولم ير لهم حقاً في مال المسلمين، بل كان كما قال جرير : « يقرب الفقراء، ويباعد الشعراء» :

وما الشعر إلا خطبةٌ من مؤلف ... لمنطق حق أو لمنطق باطل
فلا تقبلنْ إلا الذي وافق الرضا ... ولا ترجعَنّا كالنساء الأرامل
فإن لم يكن للشعر عندك موضع ... وإن كان مثل الدر من قول قائل
وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه ... سوى أنه يُبنى بناء المنازل
فإن لنا قربى ومحض مودة ... وميراث آباء مشوا بالمناصل(١)

فهو يقول لعمر : إن الشعر كالخطبة، كلام منه الحق والباطل، ومنه الصدق والكذب، لايقبل كله، ولا يُرفض كله، بل هو مثلها يقبل منهما معاً ما وافق الخير والصدق.

وعرف شاعر كعمران بن حطان بالتزام الصدق في شعره، واجتناب الكذب والنفرة منه، ولذلك قالت له امرأته يوماً : أما حلفت أنك لا تكذب في شعر ؟ فقال لها : أوكان ذلك ؟ قالت : نعم، قلت :

فهناك مجزأة بن ثور ... كان أشجع من أسامهْ

أفيكون رجل أشجع من أسد ؟ ولكن عمران أحسن الرد، إذ بين لها أنه لم يخرج على قاعدته في الصدق قال : أنا رأيت مجزأة بن ثور فتح مدينة والأسد لا يفتح مدينة(٢).

وأورد أبن رشيق خبراً شبيهاً بهذا الخبر عن زهير بن أبي سلمى ـ أو أوس بن حجر ـ إذ قال له رجل منتقداً : «إني سمعتك تقول لهرم» :

ولأنت أشجع من أسامة إذ ... دعيت نزال ولجّ في الذعر

---

(١) شعر الأحوص : ١٨٣.

(٢) الكامل : ١٠٣٣,٧٤٤، والعمدة : ١/٩٩.

وأنت لا تكذب في شعرك، فكيف جعلته أشجع من الأسد ؟ فقال : إني رأيته فتح مدينة وحده، وما رأيتِ أسداً فتحها قط» وعلق ابن رشيق على كلام زهير قائلاً : «فقد خرّج لنفسه طريقاً إلى الصدق، وبعداً عن المبالغة...(١)»

والتزم نصيب الصدق في مديحه إبراهيم بن هشام والي مكة، ولم يحمله الطمع في عطائه، أو الحرص على استرضائه، على الغلو والمبالغة، ومجاوزة المقدار، ويبدو أن الاقتصاد لم يعجب إبراهيم؛ إذ قال لنصيب : ما هذا بشيء، أين من هذا قول أبي دهبل لصاحبنا ابن الأزرق، حيث يقول :

إن تغدُ من منقَلِيْ نخلانَ مرتحلاً  يرحلْ من اليمن المعروف والجود

فغضب نصيب، ونزع عمامته، وبرك عليها، ودافع عن مبدئه الخلقي دفاعاً منطقياً حاراً قائلاً لإبراهيم : «لئن تأتونا برجال مثل ابن الأزرق نأتكم بمثل مديح أبي دهبل أو أحسن» ثم وضع نصيب قاعدة تستند إلى المعيار الخلقي الديني، وتذكرنا بما أثر عن زهير، وقُدم به، من أنه لا يمدح الرجال إلا بما يكون في الرجال، قال نصيب : «إن المديح إنما يكون على قدر الرجال...(٢)»

وصدر عمرو بن معد يكرب عن رغبة في الصدق، وعبر عن توجه خلقي في الدعوة إلى التزام الحق في القول، فهو يرفض أن يقول في قومه ما ليس فيهم، أو أن ينسب إليهم ما لم يصنعوا. يقول :

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم  نطقت ولكن الرماح أجرّت

قال المرزوقي في شرح البيت : «ولكن رماحهم أجرّت لساني كما يجر لسان الفصيل..(٣)».

وعكس سلامة بن جندل مثل هذا الموقف الخلقي الصادق مع النفس، الصادق مع الحقيقة، الذي لا يزوّر الواقع أو يهجنه؛ إذ أجاب قومه عندما قالوا له : «مجّدنا بشعرك» قائلاً : «افعلوا حتى أقول(٤)» داعياً بذلك إلى الصدق الخلقي والواقعي.

---

(١) العمدة : ١/٩٩.
(٢) الأغاني : ١/٣٦٧.
(٣) شرح ديوان الحماسة : ١/١٦٧.
(٤) نثر الدر : ٢/١٨٥، العقد : ٥/٢٧١.

وفي لون آخر من ألوان الصدق مع النفس، والثبات على المبدأ ما كان من أمر الفرزدق مع يزيد. استدعى الخليفة يزيد بن عبدالملك حين قتل يزيد بن المهلب طائفة من الشعراء، منهم الفرزدق، وكثير، والأحوص، وطلب إليهم هجاء يزيد وأهل بيته، فأبت على الفرزدق نفسه أن يهجو قوماً مدحهم بالأمس، مسجلاً بذلك موقفاً خلقياً نبيلاً، فهو لم يتزعزع أمام رغب السلطان أو رهبه. قال للخليفة : «لقد امتدحت بني المهلب بمدح ما امتدحت بمثله أحداً، وإنه لقبيح بمثلي أن يكذّب نفسه على رأس الكبر، فليعفني أمير المؤمنين، فأعفاه...(١)»

وعلى ما عرف به الحطيئة من جشع، وإلحاف في السؤال، وتكسب خسيس بالشعر؛ نزع ـ والوفاة تحضره ـ منزعاً خلقياً، فرثى لحال الشعر الجيد يُكذب فيه، فيقال فيمن لا يستحقه. قال من وصية نقدية طويلة : «أجزع على المديح الجيد يمدح به من ليس أهلاً له..(٢)»

وقد اتخذت طائفة من الشعراء هذا المعيار الخلقي «معيار الصدق والكذب» في نقد بعضهم بعضاً.

كان جرير يقول عن الفرزدق : «كذاب» ورد في الموشح : «قال عمر بن شبة : للفرزدق في شعره افتخار بعيد المعنى، لا وجه له، من ذلك قوله :

أنا ابن خندفَ والحامي حقيقتها  قد جعلوا في يديّ الشمس والقمرا

ومنها :

أخذنا بأطراف السماء عليكمُ  لنا قمراها والنجوم الطوالعُ

ومنها.. إلخ

فينبغي أن يكون جرير حين سئل عن شعره فقال : كذاب، إنما عنى هذا من شعره وأمثاله..(٣)»

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٦٥٨، الأغانى : ٤/٢٥٥.

(٢) الأغانى : ٢/١٩٧.

(٣) الموشح : ١٦٤، وانظر كتابنا نصوص النظرية النقدية : ١٣١.

وتمدّح نصيب بالصدق، ونسب بعض شعراء طبقته إليه، ونسب آخرين إلى الكذب. قيل له (١) : يا أبا محجن ! ألا تخبرنا عنك وعن أصحابك ؟ قال : بلى، جميل أصدقنا شعراً، وكثيّر أبكانا على الظعن، وابن أبي ربيعة أكذبنا، وأنا أقول ما أعرف(٢).

## الأنفة من المديح

ومن ملامح التيار الخلقي في نقد الشعراء ما عكسته طائفة منهم من ترفع عن المديح، ولا سيما مديح التكسب، إذ عدوه ـ بحق ـ منقصة للمروءة، يغتال شهامة الشاعر، ويذهب بماء وجهه، إنه متاجرة بالكلمة، وارتزاق بها، وذلك من شر الكسب.

دعا عمران بن حطان ـ شاعر الخوارج ـ الفرزدق ـ وشاهده مرة ينشد مديحاً، والناس حوله مصطفون ـ أن يصون نفسه عن طلب ما بأيدي الناس، وأن يسأل الله وحده، وألا يحمله الطمع في عطاء الممدوح على تزييف القيم، فيكذب ويمين، ويقول في الناس ما ليس فيهم :

أيها المادح العبادَ ليُعطَى ... إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارجُ فضل المقسّم الوهّاد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه ... وتسمِّ البخيل باسم الجواد (٣)

وعقد ابن رشيق في العمدة باباً سماه «باب التكسب بالشعر والأنفة منه» فذكر أن الترفع عن السؤال كان هو الغالب على الشعراء المتقدمين. قال : «وأما أكثر من تقدم فالغالب على طباعهم الأنفة من السؤال بالشعر، وقلة التعرض به

---

(١) السابق : ٣٢١، نصوص النظرية : ١٣٠.

(٢) هنالك نصوص كثيرة عبرت عن دعوة إلى الصدق الفني، أو الصدق التاريخي، أو الصدق في الوصف، لم نتوقف عندها، وأشرنا فقط إلى ما دل على الصدق الخلقي، انظر مثلاً نصوص النظرية النقدية : ١٢٢، ١٣١، ١٣٧، ومواطن أخرى.

(٣) الكامل : ٧٤٤، الأغاني : ١٨/ ٧٩.

لما في أيدي الناس، إلا فيما لا يـزري بقدر ولا مروءة، كالفلتـة النادرة، والمهمة العظيمة..(١)»

وعبر شعراء كثيرون عـن هذه الأنفـة، وبينوا مـا في السؤال مـن إسقاط للمروءة، وتهجين للكرامة. قال عبيد بن الأبرص :

مـن يسـأل النـاس يحرمـوه وسـائل اللـه لا يخيـب(٢)

وقال آخر :

وإنى امرؤ لا أسأل النـاس مالهم بشعري ولا تعيا عليّ المكـاسب(٣).

وعرف عدد من شعراء الإسلام الذين تـرفعوا عن المديح، وسموا بأنفسهم عن التكسب بـالشعر، أو اتخاذ الكلمـة متّجرا، ومـن هؤلاء مثـلاً جميل بـن معمر العذري. روي عنـه «أنه مـا مدح أحداً قـط إلا ذويه وقـراباتـه(٤)» وروي أنه صحب الـوليد بن عبدالملـك في بعض سفره، والوليـد على نجيب، فرجز بـه ابن العذري فقال :

يـا بكْـرُ هـل تعلـم مـن عـلاكـا خليفـةُ اللـه على ذراكـا

فقال الوليد لجميل : انزل فارجز، وظنه يمدحه. فقال :

أنـا جميـل في السَّنَـام مـن مَعَـدْ في الـذروة العليـاء والركـن الأشـدْ

وأخذ في مدح نفسه وقومه، فقال : اركب، لاحملك الله(٥).

وممن أنفوا من المديح كذلك عمـر بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد. قال أبو الفـرج : والحارث بن خالـد أحد شعراء قريـش المعدودين الغـزلين، وكان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة، لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء...(٦).

---

(١) العمدة : ١/٨٢.

(٢) اختيار المتع في علم الشعر وعلمه : ١/٢٩٧.

(٣) السابق نفسه.

(٤) العمدة : ١/٨٣.

(٥) اختيار المتع : ١/٣٠١.

(٦) الأغانى : ٣/٣١٢.

وقال سليمان بن عبدالملك يوماً لعمر : «ما يمنعك من مدحنا ؟ قال : إنى لا أمدح الرجال، إنما أمدح النساء (١)»

وتشبّه من المحدثين بعمر العباس بن الأحنف؛ فإنه ـ كما يقول ابن رشيق ـ «ممن أنف عن المدح تظرفاً. وقال فيه مصعب الزبيري : العباس عمر العراق. يريد أنه لأهل العراق كعمر بن أبي ربيعة لأهل الحجاز، استرسالاً في الكلام، وأنفة عن المدح والهجاء. واشتهر بذلك، فلم يكن يكلفه إياه أحد من الملوك ولا الوزراء..(٢)»

وعرف ذو الرمة بهذا الموقف الخلقي، فتجافى عن المديح. قال السيوطي : «كان ذو الرمة مليح الشعر، يشبّه فيجيد ويحسن، ولم يكن هجّاء ولا مدّاحاً...(٣)».

وكان من هؤلاء كذلك علي بن الجهم. قال في المتوكل :

وما الشعر مما أستظلّ بظله ... ولا زادنى قدراً ولا حطّ من قدري
ولكن إحسان الخليفة جعفر ... دعانى إلى ما قلت فيه من الشعر

فذكر ـ كما يقول ابن رشيق ـ «أنه لا يستظل بظل الشعر، ثم قال : «ولاحط من قدري» فأحسن الاعتذار لنفسه وللشعر. يقول : ليس الشعر ضعة في نفسه، ولاصنعته فيمن دون الخليفة، وما كفاه ذلك حتى جعل نفسه بإزاء الخليفة، بل مكافئاً له بشعره على إحسان بدأه الخليفة به. ولم يرض أن يجعل نفسه راغباً ولا مجتدياً...(٤)»

وخاطب شاعر عبدالله بن طاهر بن الحسين فعكس هذه الأنفة قائلاً :

لسانى وقلبي شاعران كلاهما ... ولكن وجهي مُفْحَم غير شاعر
فلو كان وجهي شاعراً كسب الغنى ... ولكن وجهي مثل وجه ابن طاهر
فتى يتقي أن يخدش اللؤم عرضه ... ولا يتقي حد السيوف البواتر(٥)

---

(١) الأغانى : ١/ ٧٤.
(٢) العمدة : ١/ ٨٤.
(٣) شرح شواهد المغني : ١/ ٢٣، الموشح : ٢٢٨.
(٤) العمدة : ١/ ٤٢.
(٥) اختيار الممتع : ١/ ٣٠١.

وعرف بهذه الأنفة ابن خفاجة الأندلسي؛ فقد ترفع عن مديح الملوك. قال ابن بسام عنه : «كان مقيماً بشرق الأندلس، ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها، مع تهافتهم على أهل الأدب..(١)»

ومن عجب أن نجد الحطيئة ـ الذي كان سُؤَلَة ملحافاً ـ يعكس موقفاً خلقياً، إذ أدرك أن وضاعة الغرض الشعري تحدر صاحبها عن منزلته الشعرية، وترفع فوقه من هو دونه؛ سأله ابن عباس مرة : من أشعر الناس ؟ قال : أمن الماضين أم من الباقين ؟ قال : من الماضين. قال : الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره، ومن لا يتق الشتم يشتم

وما بدونه الذي يقول :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّه على شَعَث، أيّ الرجال المهذب؟

ثم قال عن النابغة : «ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جروالاً ـ يعني نفسه ـ والله يا بن عم رسول الله لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين..(٢)»

وهكذا وجدت طائفة من الشعراء في الجاهلية والإسلام، تأنف من المديح، والتكسب بالشعر، وتتخذ من ذلك موقفاً خلقياً؛ إذ ترى في ذلك انتقاصاً من قدر الشاعر، وتهويناً من شأن الكلمة، وتسخيراً للفن في أغراض غير نبيلة، وهو مزلقة إلى الكذب والنفاق، وتزوير القيم، فكم حقيرٍ عظمه، وكم قزمٍ نفجه وعملقه.

وكان هذا المعيار الخلقي أحد أسباب انحدار مكانة الشاعر وسقوط منزلته. قال ابن رشيق : «كان الشاعر في مبدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب لشدة حاجتهم إلى الشعر في تخليد المآثر، وشدة العارضة، وحماية العشيرة...

---

(١) وفيات الأعيان : ١/٥٦.

(٢) الأغاني : ٢/١٩٣، العمدة : ١/٩٧.

فلما تكسبوا به، وجعلوه طُعمة، وتولّوا به الأعراض وتناولوها، صارت الخطابة فوقه، وعلى هذا المنهاج حتى فشت فيهم الضراعة، وتطعموا أموال الناس، وجشعوا فخشعوا، واطمأنت بهم دار الذلة، إلا من وقر نفسه وقارها، وعرف لها مقدارها، حتى قبض نقي العرض، مصون الوجه..(١)»

وقال المرزوقي في بيان تأخر رتبة الشعراء عن رتبة البلغاء، فذكر من ذلك : «أنهم اتخذوا الشعر مكسبة وتجارة، وتوصلوا به إلى السُّوَق كما توصلوا به إلى العلْية، وتعرضوا لأعراض الناس، فوصفوا اللئيم عند الطمع بصفة الكريم، والكَريم عند تأخر الصلة بصفة اللئيم، حتى قيل : الشعر أدنى مروءة السري، وأسرى مروءة الدنى..(٢)»

## الترفع عن الهجاء

وكما ترفعت طائفة من الشعراء عن المديح، ولا سيما مديح التكسب، وعدته ـ بالمعيار الخلقي ـ لوناً من ألوان المتاجرة بالكلمة، يزري بمروءة الشاعر، ويسفح ماء كرامته، ويحمله على الكذب والنفاق، نفرت طائفة أخرى من الهجاء، وعدته غرضاً غير نبيل؛ إذ هو ـــ عندما لا يكون لردع ظالم، أو فضح طاغية فاسق ـ ضرب من السب، ولون من ألوان البذاءة والشتم.

ورأينا أغلب الذين أنفوا من المديح أنفوا من الهجاء كذلك، كنصيب، وعمر ابن أبي ربيعة، والحارث بن خالد، وذي الرمة، وغيرهم، كالنمر بن التولب. روى أبو عبيدة أنه كان «شاعر الرباب في الجاهلية، ولم يمدح أحداً ولا هجا..(٣)»

ومرّ معنا قبل قليل أن نصيباً لم يترفع عن المبادأة بالهجاء فحسب ،بل ترفع كذلك عن الرد على من هجاه، وسما بشعره أن يطرحه في غرض دنيء. قال لمن سأله أن يجيب : «لو كنت هاجياً لأحد لأجبته، ولكن الله أوصلني بهذا الشعر إلى خير، فجعلت على نفسي ألا أقوله في شر..(٤)»

---

(١) العمدة : ١/٨٣.
(٢) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام : ١/٩٧.
(٣) شرح أبيات المغني للبغدادي : ١/٣٩٣، خزانة الأدب : ١/٣٢١.
(٤) الأغانى : ١/٣٥٢.

وقالوا لـه مرة: إن الناس يزعمـون أنك لا تحسن أن تهجو، فضحـك ثم قال : أفتراهم يقولون : إني لا أحسـن أن أمدح ؟ فقيل : لا . فقال : أفما تراني أحسن أن أجعـل مكان عافاك اللـه، أخزاك الله ؟ إني رأيت النـاس رجلين : إما رجل لم أسألـه شيئاً فلا ينبغي أن أهجوه فـأظلمه، وإما رجل سـألته فمنعني، فنفسي كانت أحق بالهجاء إذ سولت لي أن أسأله ، وأن أطلب ما لديه..(١)»

وإذا لم يبدُ الهجـاء مجرد قلب لصفات المديـح، ووضع (أخـزاك الله) في مكان (عافاك الله) بل هو غرض متميـز تسوق إليه عواطف وأحاسيس مختلفة عن عـواطف المديح(٢)، فإن نصيبـاً كان على صواب وهو يعـده ظلماً إذا طال الآخرين بلا وجه حق، كأن يمنع الشاعـر من عطاء أحد ـ كما كان حال بعض الشعراء ـــ فيهجو مانعـه، بل إن نصيبـاً يمضي في التعليل الخلقي إلى أبعـد من ذلك، فيرى من يضـع نفسه في موضع السـؤال، ويعرضها للذل والمهـانة، أحق بالهجاء

وصرح عبدة بن الطبيـب ـ الشاعر المخضرم ـ أن الهجـاء ضَعَة، وأنه لا يليق بالمروءة ولا بالشرف، وهو لا يتركه عجزاً، ولكـن يتركه ترفعاً وخلقاً. قال رجل لخالـد بن صفوان : كان عبـدة بن الطبيب لا يحسن أن يهجـو، فقال : لا تقل ذلك، فوالله ما أبى من عيّ، ولكنه كان يترفع عن الهجاء، ويراه ضعة، كما يرى تركه مروءة وشرفاً. قالَ :

وأجـرأُ مـن رأيـت بظهـر غيـب  على عيب الـرجال أولـو العيوب(٣)

كما عبر عن هذا المنزع الخلقي في النفرة من الهجاء العجاج، وعده ـ مثل نصيب وعبـدة ـ لوناً مـن الظلم، وإن أخلاق الـراشد الحليم لتحجزه عـن ظلم الآخرين، مثلما يحجزه الحفاظ على أحسابه عن تعريضها للذم والانتقاص. قال سليمان بـن عبدالملـك مرة للعجـاج : «إنـك لا تحسن الهجـاء» فقال : «إن لنـا

---

(١) الأغاني : ١/٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٢) انظر في العمدة : ١/١١٢، كلاماً حول هذه المسألة.

(٣) الأغاني : ٢١/٢٦.

أحلاماً تمنعنا من أن نظلم، وأحساباً تمنعنا من أن نُظلم. وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم ؟(١)»

كما نحا هذا المنحى الخلقي الشاعر الجاهلي صخر بن عمرو بن الشريد، أخو الخنساء، فأظهر نفرة من الهجاء، حتى إنه رفض أن يهجو هاشماً ودريداً ابني حرملة المرّيّين من غطفان، وهما اللذان قتلا أخاه معاوية، وآثر أن يصون لسانه عن الفحش، وأن يسمو بشعره عن المهاترة والسباب. قال قائل لصخر : «اهجهم. فقال : ما بيني وبينهم أقذع من الهجاء، ولو لم أمسك عن هجائهم إلا صوناً للساني عن الخنا لفعلت، ثم خاف أن يظن بي عِيّ، فقال :

وعاذلة هبت بليل تلومني ... ألا لا تلوميني كفى اللومَ ما بيا
تقول : ألا تهجو فوارس هاشم ... ومالِيَ إذ أهجوهمُ ثم ماليا
أبى الشتمَ أني قد أصابوا كريمتي ... وأن ليس إهداء الخنا من شماليا
إذا ما امرؤ أهدى لميْت تحية ... فحياك رب العرش عني معاويا
وهوّن وجدي أنني لم أقل له : ... كذبتَ، ولم أبخل عليه بماليا(٢)

وأورد ابن رشيق في العمده (٣) أسماء طائفة من الشعراء الذين رغبوا ـ أنفةً ـ عن هجاء غير الأكفاء : رغب الزبرقان بن بدر عن هجاء الحطيئة، واستعدى عليه عمر بن الخطاب، ورغب سحيم بن وثيل عن الرد على الأخوص والأبيرد. ورغب الفرزدق عن ملاحاة الطرماح، وجرير عن بشار، وبشار عن حماد، وأبو تمام عن مخلد بن بكار، والمتنبي عن ابن حجاج، وابن هانىء عن شعراء إفريقية. ثم أورد أسماء طائفة ممن رغبوا عن الهجاء كله، وأثنى عليهم، فقال : «ومنهم من لا يهجو كفؤاً ولا غيره، لما في الهجو من سوء الأثر، وقبح السمعة، كالذي يحكى عن العجاج أنه قيل له : لم لا تهجو ؟ فقال : ولم أهجو؟

---

(١) الشعر والشعراء : ٥٩١، والعمدة : ١/١١٢.

(٢) الكامل : ١٤٢٢،٢٤٧.

(٣) العمدة : ١/١٠٩ ـ ١١١.

إن لنا أحساباً تمنعنا من أن نُظلم، وأحلاماً تمنعنا من أن نَظلم... وسئل نصيب عن مثل ذلك، فقال : إنما الناس أحد ثلاثة، رجل لم أعرض لسؤاله فما وجه ذمه ؟ ورجل سألته فأعطاني فالمدح أولى به من الهجاء. ورجل سألته فحرمني، فأنا بالهجاء أولى منه» وعقب ابن رشيق على هذا الكلام مستحسناً، فقال : «وهذا كلام عاقل منصف، لو أخذ به الشعراء أنفسهم لا ستراحوا واستراح الناس...(١)» ثم ذكر أن ممن ترفع عن الهجاء في زمانه أبو محمد عبدالكريم ابن إبراهيم. قال ابن رشيق عنه : «لم يهج أحداً قط. ومن أناشيده في كتابه المشهور، لغيره من الشعراء :

ولست بهاجٍ في القرى أهل منزل ... على زادهم أبكي وأُبكي البواكيا
فإما كرامٌ موسرون أتيتهم ... فحسبيَ من ذو عندهم ما كفانيا
وإما كرامٌ موسرون عذرتهم ... وإما لئامٌ فادّخرت حيائيا

وهذا مثل كلام نصيب المنثور الذي تقدم..(٢)».

وهكذا نفرت طائفة من الشعراء العرب في الجاهلية والإسلام من غرض الهجاء، وحاكمته إلى المعايير الخلقية، فرأت في هجاء البرآء ومن لا وجه لذمهم، ضرباً من السفه، ولوناً من الظلم والافتراء على الخلق، وطرحاً للكلمة في مواطن الخنا، وفتحاً لباب من أبواب المهاترة والشر، يسمو الشاعر النبيل عن الخوض فيه، ويربأ بالكلمة أن يحدرها في هذا الدرك.

## العفة في الغزل

ومن الملامح الخلقية في نقد الشعراء ما أثر عن بعضهم من أقوال تدعو إلى التزام العفة في الغزل، وعدم الخروج إلى الفحش والمجون، وما يخدش الحياء، أو يُسْتَحَى من ذكره.

يتمدح نصيب بعفته. ومرّ بنا قوله : «والله ما قلت بيتاً قط تستحي الفتاة الحيية من إنشاده في ستر أبيها..(٣)»

---

(١) العمدة : ١/١١٢.
(٢) السابق نفسه.
(٣) الأغاني : ١/ ٣٦٤.

وبلغ من عفته أنه لم يشبّب بامـرأة غير زوجه. نقل السيوطي أن نصيب ابن رباح وكان عبداً أسود، وكان عفيفاً، وكان لا يشبّب قط إلا بامرأته..(١)».

ودافع ابن المولى عـن عفته، وأكد حرصـه عليها، وأقسم أنه لم يـذكر في شعره قط امرأة مسلـم ولا معاهد بسوء، وكان يوري عـن المرأة بقوسه. روي أن الحسن بن زيـد دعا بابن المولى، فـأغلظ له وقال : أتشبـب بحرم المسلمين، وتنشد ذلك في مسجد رسول الله ﷺ وفي الأسواق والمحافل ظاهراً ؟ فحلف له بالطلاق أنه ما تعرض لحرم قط، ولا شبب بأمرأة مسلم ولا معاهد قط، قال : فمن ليلى هذه التي تذكر في شعرك ؟ فقال لـه : امرأتي طالق إن كانت إلا قوسي هذه، سميتهـا ليلى لأذكرهـا في شعري؛ فـإن الشعر لا يحسـن إلا بالتشبيـب. فضحك الحسن ثم قال : إذا كانت القصة هذه فقل ما شئت(٢)».

وطوى النقـد الذي وجهـه بعض الشعـراء إلى غزل عمـر بن أبي ربيعـة ملمحاً خلقيـاً؛ إذ أُخذ عليـه خروجه على قـواعد الأدب والعـرف في حديثـه عن المرأة، وامتهانه شأنها، حتى لتبدو صورتها فيما يسـوقه عنها مبتذلة متقحمة، بدل أن تكون عفيفة حيية شأن النساء الحرائر الشريفات.

قال كثيرّ لعمـر : «يا أخا قـريش ! والله لقـد قلت فأحسنـت في كثير من شعرك، ولكنك تخطىء الطريق. تشبب بها، ثم تدعها وتشبب بنفسك ! أخبرني عن قولك :

قـالـت لترب لها تحدّثهـا ... لتُفْسـدن الطـواف في عمـر
قـومـي تصـدي لـه ليبصرنـا ... ثـم اَغمـزيـه يـا أختُ في خفـر
قـالـت لها : غمـزتـه فـأبـى ... ثـم اسبطـرَّتْ تشتـد في أثـري

أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك، والله لو وصفت بهذا هرة أهلك ـ أو قال منزلك ـ كنت قد أسـأت صفتها. أهكذا يقال للمرأة ؟ إنها توصف بالخفر،

(١) شرح شواهد المغني : ١/٣٠١.
(٢) الأغاني : ٣/٢٩١.

وأنها مطلوبة ممنّعة. هلا قلت كما قال الأحوص .

لقد منعت معروفَها أم جعفر ... وإني إلى معروفها لفقير(١)

ومن الواضح أن كثيراً لم يكتف بنقد شعر عمر لخروجه على قواعد الخلق العربي في الغزل، بل قارن بين إظهاره المرأة رخيصة سهلة، وبين إظهارها ممنعة حصينة في قول الأحوص.

قال : ابن رشيق : «قال بعضهم ـ أظنه عبداكريم ـ العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هو الطالبة والراغبة المخاطبة، وهذا دليل كرم النحيزة في العرب وغيرتها على الحرم..(٢)»

ومن قبيل هذا الملمح الخلقي في نقد شعر الغزل ما نسب إلى كثير كذلك من أنه أخذ على نصيب قوله :

أهيم بدعد ما حييتُ فإن أمت ... فواحزني من ذا يهيم بها بعدي؟

إذ بدا وكأنه يعكس غيبة نخوة، أو قلة غيرة على المرأة التي يحب، ولذلك قال له : «كأنك اغتممت ألا يفعل بها بعدك.. وفي رواية : أيهمك من ينكحها بعدك والرجال أكثر مما تظن..(٣).

## نقد خلقي للمعاني

نقدت طائفة من الشعراء بعض المعاني والأفكار نقداً خلقياً، فنبهت على ما وقع في الشعر أحياناً من قيم هجينة، تخالف السجايا الرفيعة، أو الأخلاق الحميدة، أو ما شاكل ذلك من مثل وأعراف أصيلة.

سمع حاتم الطائي قول المتلمس :

قليلُ المال يصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير مع الفساد
وحفظ المال خير من فناءٍ ... وعسفٌ في البلاد بغير زاد

---

(١) الموشح : ٢٥٧، وينسب النقد كذلك إلى غير كثير، انظر العمدة : ٢/ ١٢٤.

(٢) العمدة : ٢/ ١٢٤.

(٣) الموشح : ٢٦٠.

فاشتم منه رائحة بخل، أو تزييناً للدعوة إلى حفظ المال وكنزه، خلافاً للخلق العربي الأصيل الذي عرف بالكرم، فقال في نقده : «قطع الله لسانه، حمل الناس على البخل» ثم ساق النموذج الأرفع الذي يعكس قيمة الجود، فقال: هلا قال :

فلا الجود يفني المال قبل ذهابه ولا البخل في مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس مالاً بعيش مقترّ لكل غدٍ رزقٌ يعود جديد (١)

وسمع أحيحة بن الجلاح الشماخ يقول في خطاب ناقته :

إذا بلغتني وحملت رحلي عرابةَ فاشرقي بدم الوتين

فأنكر عليه ذلك، إذ بدا الشماخ منكراً لفضل الناقة، يستغني عنها فيدعو عليها بالموت بعد أن توصله إلى غايته. قال أحيحة في نقده : «بئس المجازاة جازيتها».

ومن الواضح أنه يستند في هذا النقد إلى معيار ديني خلقي؛ فقد روي أن امرأة أنصارية كانت مأسورة بمكة، فنجت على ناقة، فقالت للنبي ﷺ : «إنى نذرت إن نجوت أن أنحرها، فقال رسول الله ﷺ : لبئس ما جزيتها»(٢)

وأبدى رؤبة إعجابه بقول امرىء القيس :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ـ ولم أطلب ـ قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجدَ المؤثّل أمثالي

واستهجانه لقوله :

لنا غنمٌ تسوقها غزارٌ كأن قرون جلتها العصيُّ
فتملأ بيتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبعٌ وريُّ

---

(١) شرح شواهد المغني : ١/٢٠٩.
(٢) الموشح : ٩٥.

فقال عن الأول : «ما رأيت أفخر من قول امرىء القيس...» وقال عن الثاني : ما رأيت أنذل من قوله ...(١)»

ومن الواضح أن رؤية انطلق في هذا النقد من مبدأ خلقي؛ فقد عكس كلام امرىء القيس الأول همة قعساء، وطموحاً وثاباً إلى المعالي، فهو لا يقبل بالمعيشة الدون، ولو أنه قبل بها لكان حسبه القليل من المال. وقد أعجب رؤية بهذه القيمة الرفيعة، وأثنى على قائلها، وعدها من أفخر ما قالته العرب في هذا المعنى.

وعلى المحك الخلقي نفسه ضرب قول امرىء القيس الثاني، فوقر في نفسه أنه يناقض الأول، فيعبر عن همة متقاعسة، وعزيمة خائرة، ونفس غير طُلَعَة، ترضى باليسير، ويقنعها القليل، فاستهجن رؤية هذا المعنى، وعده من أنذل ما قيل.

وأثرت عن الحطيئة عدة أحكام نقدية، أثنى فيها على بعض المعاني ذات المنحى الخلقي التربوي، فعدها من أشعر ما قيل في بابها، أو عد قائلها من أشعر العرب أو الناس فيها.

سئل مرة من أشعر العرب ؟ فقال : الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه  يفره، ومن لا يتق الشتم يُشتم

يعني زهيراً. قيل : ثم من ؟ قال الذي يقول :

من يسأل الناس يحرموه  وسائل الله لا يخيب

يعني عبيداً. قيل : ثم من ؟ قال : أنا..(٢)

وسئل مرة عن أشعر الناس، فقال : أبو دؤاد حيث يقول :

لا أعد الإقتار عُدماً، ولكن  فقدُ من قد رزئتُه الإقدام

---

(١) الموشح : ٢٦.

(٢) الشعر والشعراء : ٣٢٥.

قالوا : ثم من ؟ قال : عبيد بن الأبرص الذي يقول :

أفلحْ بما شئت فقد يبلغ بالضـ ـعف، وقد يُخدع الأريب(١)

وقال مرة : أبلغوا أهل ضابىء أنه شاعر حيث يقول :

لكل جديد لذة غير أنني رأيت جديد الموت غير لذيذ

وأبلغوا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث يقول :

يُغْشَون حتى ما تهرّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل(٢)

ومن الواضح أن هذه النماذج من المعانى التي أعجب بها الناقد الحطيئة، وحكم لأصحابها بالشاعرية، هي معان خلقية، اغترفت من نبع القيم الرفيعة، فعبرت عن الحكمة، والموعظة، ومحمود الخصال.

وعن هذا المنزع الخلقي في إيثار الشعر وتفضيله صدر كل من الفرزدق وجرير في الحكم على بشر بن أبي خازم.

سئل الفرزدق مرة : من أشعر العرب ؟؟ فقال : بشر بن أبي خازم، قيل له : بماذا ؟ قال : بقوله :

ثوى في مُلْحد لا بد منه كفى بالمرء نأياً واغترابا

ثم سئل جرير، فقال : بشر بن أبي خازم. قال : بماذا ؟ قال : بقوله :

رهين بِلىً، وكل فتى سيلبى فشقي الجيب وانتحبي انتحابا

فاتفقا على بشر كما ترى(٣)

وهكذا يتضح من خلال النماذج التي أوردناها من نقد الشعراء للمعانى أن المعيار الخلقي كان له حضور متميز، احتكم إليه الشعراء النقاد فيما أبدوا من آراء، وكان له دور واضح في تقدير القول والإعجاب به، وفي استهجائه والنفرة منه. أثنوا على ما عبر من الشعر عن قيم رفيعة، ومعان نبيلة، تسمو بالنفس، وتنبُل بالخلق، وعابوا ما جافى من القول هذه القيم، أو رَوج لتصورات سقيمة، وأفكار عليلة.

---

(١) الأغانى : ١٧/٢٢٦. (٢) السابق : ٢/١٩٥ ـ ١٩٧. (٣) العمدة : ١/٩٥.

## خلاصة البحث

درس هذا البحث ما وقع إليه من آراء الشعراء النقدية التي مثلت الاتجاه الخلقي في النقد العربي القديم، فانتهى إلى أن معيار الأخلاق والدين لم يكن غائباً أو مبهماً، بل كان له حضور جلي في عدد من المسائل والقضايا، وفيما يستحسن أو يُستقبح من القول. كان شطراً هاماً من النشاط النقدي الذي خلفه العرب، يفند مقولة من قال : إن النقد العربي القديم نقد جمالي، لم يتحدث عن علاقة بين الأدب والأخلاق، أو بين الأدب والدين، ولم يحفل إلا بالصياغة الفنية وحدها.

ووضّح البحث أن أقوال الشعراء النقدية عرضت لمجموعة من القضايا الأدبية، وصدرت فيها عن تصورات خلقية :

ـ تحدث الشعراء عن **وظيفة الشعر**، فتجلى عندهم تصور واضح لدور خلقي، تربوي، اجتماعي، يمكن أن ينهض به : كالدعوة إلى مكارم الصفات، ومحمود الخصال، وحث النفوس على الخير، وحملها على الفعل، والذود عن مآثر القبيلة وأمجادها، وغير ذلك.

ـ وعبرت آراء نقدية عن دعوة إلى **التزام العفة** في القول، وانتباذ الفحش، وساقط الكلام، وصون اللسان عما يخدش الحياء، ويهجّن المروءة.

ـ ودعت أقوال أخرى إلى **الصدق في القول**، بأشكاله كافة، ومدحته وأثنت عليه، وعدته من مقاييس الشاعرية، وذمت الكذب والغلو، وتذبذب الرأي، وتزييف القيم، والقول بلا تحقق ولا تثبت.

ـ وصورت آراء نقدية النفرة من أغراض معينة يكثر وقوع الانحراف فيها، فتتجافى مع الخلق الحميد، ومع شهامة القائل ومروءته. **كالمديح** الزائف، ومديح التكسب، الذي عدوه متاجرة بالكلمة، وارتزاقاً غير شريف ولا كريم. **والهجاء**، الذي ترفع قوم عنه عامة، فلم يبدؤوا به أحداً، ولم يردوا على من بدأهم صوناً لألسنتهم، وترفع قوم عن الرد على غير الأكفاء. ونظر إلى الهجاء ـ

بشكل عـام ـ عند فريـق من الشعراء العـرب على أنه لون من السـب والقذف، وضرب من فحشاء الكلام وساقطه، يتنزه الشريف عنه، ويربأ بحسبه وعرضه أن يجعلهما أحدوثة الناس، وفي موطن التنقص والازدراء.

وترفع قوم عن **الغزل** الفاحش، فالتزمـوا العفة، ولم يقولوا ما يُسْتحى من إنشاده، أو يخدش حيـاء المرأة، أو يبتذل قيمتها، أو يشكل اعتـداء على قيم المجتمع وأخلاقه.

ـ وأثرت إلى جانـب ذلك مجموعة **نقود تطبيقية**، تناول فيهـا الشعراء المعانى بـالنقد الخلقي، فعبروا عـن استحسانهم لما واطأ الحق منهـا، ولما صدر عن مثـل رفيعة، وصورا استهجانهم ونفـرتهم مما خرج على محمـود الأخلاق ومكارم الصفات..

## المصادر والمراجع


١ ـ إحكام صنعة الكلام : الكلاعي، تحقيق د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت : ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢ ـ أخبار أبي تمام : الصولي، تحقيق خليل عساكر، محمد عبده عزام، نظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري، بيروت، بلا تاريخ.

٣ ـ اختيار الممتع في علم الشعر وعمله : عبدالكريم النهشلي، تحقيق د. محمود شاكر القطان، دار المعارف، مصر : ١٩٨٣م.

٤ ـ أسرار البلاغة : عبدالقاهر الجرجاني، تصحيح محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت : ١٣٩٨هـ ـ ١٩٨٣م.

٥ ـ الأسس الجمالية في النقد العربي : د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، بلا تاريخ.

٦ ـ أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٧ ـ الأغاني : الأصفهاني، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، بيروت.

٨ ـ حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد الثالث ـ ١٩٨١.

٩ ـ خزانة الأدب: البغدادي، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة: ١٩٧٩م.

١٠ ـ ديوان نابغة بني شيبان : دار الكتب المصرية، القاهرة : ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.

١١ ـ شرح أبيات المغني : البغدادي، تحقيق عبدالعزيز رباح، أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون، دمشق.

١٢ ـ شرح حماسة أبي تمام : الشنتمري، تحقيق د. علي المفضل حمودان، مطبوعات مركز جمعة الماجد، دبي : ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١٢ ـــ شرح ديـــوان الحماســة لأبي تمام : المرزوقـــي، تحقيـــق أحمد أمين، عبدالسلام هارون، لجنة التـأليف والترجمة والنشر، القاهرة : ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

١٣ ـ شرح ديوان الفـرزدق : جمع وتعليق عبدالله الصاوي، المكتبـة التجارية، مصر، بلا تاريخ.

١٤ ـ شرح شواهد المغني : السيوطي، لجنة التراث، بيروت، بلا تاريخ.

١٥ ـ شعـر الأحوص : عادل سليمان، الهيئة المصريـة العامة للتـأليف والنشر، القاهرة : ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

١٦ ـ شعر هدبة بـن الخشرم العذري : د. يحيى الجبوري، دار القلم، بيروت : ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٧ ـ الشعـر والشعراء : ابن قتيبة، تحقيـق أحمد محمد شاكـر، دار المعارف، مصر : ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

١٨ ـ طبقات فحـول الشعراء : ابـن سلام الجمحـي، تحقيق محمـود شاكـر، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض.

١٩ ـ العقـد : ابن عبـدربه، تحقيـق أحمد أمين، إبراهيـم الإبياري، عبـدالسلام هارون، القاهرة ١٩٤٩م.

٢٠ ـ العمدة : ابـن رشيق، تحقيق محمد محيـي الدين عبدالحميـد، دار الجيل، بيروت، بلا تاريخ.

٢١ ـ في نقد الشعر : د. محمود الربيعي، دار المعارف، مصر : ١٩٦٨م.

٢٢ ـ الكامـل : المبرد، تحقيـق د. محمـد الدالي، مـؤسسـة الـرسالـة، بيروت: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٣ ـ مختصر تاريخ دمشق : ابن منظور، دار الفكر، بيروت.

٢٤ ـ المنتقى من أخبـار الأصمعي. انتقاء الحافظ ضياء الديـن المقدسي، تحقيق

محمد مطيع الحافظ، دار طلاس، دمشق : ١٩٨٧م.

٢٥ ـ الموشح : المرزباني، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، دار نهضة مصر : ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

٢٦ ـ نثر الدر : الآبي، تحقيق محمد علي قرنة، الهيئة المصرية العامة، القاهرة : ١٩٨٠م، وما بعدها.

٢٧ ـ نصوص النظرية النقدية عند العرب من العصر الجاهلي إلى أوائل القرن الثالث الهجري : د. وليد قصاب، المكتبة الحديثة، العين : ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٨ ـ نقد الشعر : قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر : ١٩٦٣م.

٢٩ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة : ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٣٠ ـ وفيات الأعيان : ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة : بيروت : ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.